مَنْهَجُ البَحْثِ اللّغَوِيّ العَرَبِيّ في طَوْرِ التّأسِيسِ
-مَلَامِحُهُ وَمُرْتَكَزَ اتُهُ-

Arabic Linguistic Research Approach in the Establishment Phase
- Its features and foundations -

ط.د نوال عمامرة [1,*]، أ.د أحمد الشايب عرباوي [2]

[1] جامعة الوادي، (الجزائر)، Amamra-naoual@univ-eloued.dz

[2] جامعة الوادي، (الجزائر)، ahmedchaib-arbaoui@univ-eloued.dz

مخبر: بحوث في الأدب الجزائريّ ونقده.

تاريخ الإيداع: 2022/12/02 **تاريخ المراجعة**: 2023/06/03 **تاريخ النشر**: 2023/06/30

ملخص:

لا يستقيمُ أمرُ أيّ علمٍ ولا تثبُت قواعدُه في غيبَة المنهجِ، فالمنهجُ هو الأسُسُ العِلمِيّةُ الرّصِينَةُ الّتي يَتَحَرّكُ وفقَها المجتهدُ فتؤهّله لِلظّفَرِ بمبتغاهُ، ومع تَزايُدِ الاهتِمامِ بالبَحثِ اللّغويّ التّراثيّ وسؤالِ المنهجِ، تتّجهُ هَذِهِ الدّرَاسةُ إلى الكَشفِ عن مَلامحِ المستَوى المنهجيّ الذي بلغَهُ الدّرسُ اللّغويّ العَربيّ عِنْدَ النُّحاةِ المتقدّمين وتَخريجِ بَعضِ اختياراتِ النّحاةِ المنهجيّة، وذَلِكَ من خِلالِ استِقراءِ بَعضِ الجهودِ الأولى في التّأسِيسِ للدّرْسِ اللُّغويّ العَرَبيّ، ومنه فإنَّ مُشكِلَة البَحْثِ يُمكِن الإجابَة عنها مِن خِلال الأسئلةِ الآتيةِ:

مَا هِيَ سُبُلُ نُحَاةِ العَرَبِيّةِ الأَوَائِلِ في التّأسِيسِ لِلدّرس اللّغوي العَرَبيّ؟ وهَلْ كانُوا أَهْلَ مَنْهجِيّةٍ وَتَنْظِيمٍ؟ وهل وفّقوا إلى مَنْهَجٍ عِلْميّ سَلِيمٍ؟

الكلمات المفتاحيّة: المَنْهَجُ، الدّرْسُ اللّغويُّ العربيُّ، الاسْتِقْرَاءُ، المِعْيَاريّة، الاطّرَادُ، التّدَاوُلِيّةُ.

***Abstract**: Any science is inappropriate and its rules are not proven in the absence of the methodology. The methodology is the solid scientific basis by which the diligent moves and qualifies him to achieve his goal. With the increasing interest in the traditional linguistic research and the question of the methodology, this study seeks to explore the features of the methodological level that the Arabic language lesson reached at the grammarians. Linguists, with an attempt to figure out some of the grammarians' methodological choices, by extrapolating some of the first efforts in establishing the Arabic language lesson, and from it, the research problem can be answered through the following questions:*

What are the ways of the early Arabic grammarians in establishing the Arabic language lesson? Were they scientists of methodology And did they agree to a sound scientific method?

***Key words**: method, the Arabic language lesson, induction, normative, regularity, deliberative.*

* المؤلف المراسل.

تقديم:

لِكلّ أمّةٍ عنايةٌ خَاصّةٌ بِلغتِها؛ حفاظًا عليها مادَامَ هُناكَ نَشَاطٌ تَواصُليّ يتمّ من خِلالِها، وقَدْ نجَحَت كثيرٌ منَ الأمَمِ في التّأْسِيسِ لِدَرسِها اللّغَويّ، وذَلِك باعْتمادِها على وسائلَ عِلميّةٍ ومَوضُوعيّةٍ لِتحليلِ المُعْطَياتِ اللّغَويّة وَتَقريرِ الوَاقِعِ اللّغويّ، بدءًا مِنَ الهُنُودِ واليُونان وغيرِهِم، ومَا اسْتَقَامَ أَمْرُ البَحْثِ اللّغَويّ إلّا بِاتّبَاعِه مَنْهَجًا يَسِيرُ عَلَيْهِ كَغَيْرِهِ مِنَ العُلُوم الأُخْرَى، وَهُو الأمْرُ الّذي حَدَا بِي إلى مُحَاوَلَة تَبيينِ مَلامِحِ المَنْهَجِ الذِي اِعتَمَدَهُ نُحَاةُ العَرَبيّةِ الأَوَائِلِ في سَبِيلِ حِفْظِ تَمَاسُكِهَا بِاعْتِبَارِهَا المَرْجِعَ الأَسَاسَ في فَهْمِ لُغَةِ القُرْآنِ الكَرِيمِ ووَسِيلَة لتَوَاصُلِ الأجْيَالِ المسْلِمَة عَبرَ التّارِيخِ، معَ مُحَاوَلة لتَخْرِيجِ بَعْضِ اخْتِيَارَاتِ النُّحاةِ المَنْهَجِيّة، ومنه فإنّ هَذَا البَحْثَ هُوَ مُحَاوَلةٌ للإجَابَةِ عن هَذِه التّسَاؤُلاتِ: هَلْ كَانَ نُحَاةُ العَرَبيّةِ الأوَائِلِ أَهْلَ صَنْعَةٍ وَتَنْظِيمٍ ومنهجيّة؟ وَهَلْ وُفّقُوا إلى مَنْهَجٍ عِلْميّ سَلِيمٍ؟

العرض:

بَعدَ مَجِيءِ الإِسْلامِ إِلَى العَرَبِ كَانَ لِزَامًا عَلَيهِم أنْ يَخْتَلِطُوا بغَيرِهِم مِنَ الأُمَمِ لأنّ هَذَا الدّينَ للنّاسِ كَافّةً ومَادّتُه الأولَى العَرَب ولُغتهم، فهُم سَيسِيرون مَعَه إلى حيثٌ يَسِيرُ إلى المَمَالِكِ والأمْصَارِ مَعَ الفَتْحِ الإسْلامِيّ ومعروف أنّ ثَقافَةَ الأمَمِ الغَالِبَةِ هي الّتِي تَتَمَكّنُ في البِلادِ المفْتُوحَةِ، فَيحْدثُ التَّأثِيرُ والتّأثُّرُ بَينَ الأُمَمِ يقُولُ الزّبَيْدِيّ(379ه): "وَلَمْ تَزَل العَرَبُ في جَاهِلِيّتِها وَصَدْر من إسْلامِهَا تَبْرُعُ في نُطْقِها بالسّجيّة، وتتكلّم السَّليقةَ حتّى فُتِحَتْ المَدائنُ، ومُصِّرتْ الأمْصَارُ، ودوّنت الدّوَاوينُ، فَاخْتلطَ العَربيّ بالنّبطيّ، والتقَى الحِجازيّ بالفَارِسيّ، ودَخَلَ الدّينَ أَخْلاطُ الأمَمِ وسَواقِط البُلدانِ، فوقَع الخَللُ في الكَلامِ وَبَدَأَ اللّحنُ في أَلسنةِ العَوامِ."[1] والمُتتبّعُ لنَشأةِ الحركَةِ العِلميّةِ العَرَبيّةِ القَدِيمَةِ، سَيجدُهَا كأيّ عَمَلٍ عِلميّ، يَقُومُ في أوّلِ أمْرِهِ على الإحْسَاسِ بوُجُودِ ظَاهِرةٍ تَحْتاجُ إلى تَتَبّعٍ واسْتقصَاءٍ، مِنْ أجلِ الوُصُولِ إلى حَلّ، فكَان أنِ انْتبَه عُلماءُ العَربيّة إلى خَطرِ فُشوّ اللّحنِ الذي يُؤدّي إلى ضَعفِ اللّغةِ وانْحِلالهَا وتلاشِيها، فَانْكبّوا عَلَى لُغَةِ العَرَبِ يَدْرُسونَها، وكَان لَهُم خِلال عَمَلِهِم العِلميّ هَذا إجرَاءاتُهم المنْهجيَّة الخَاصّة، وهَدفُهم هُو تَقريرُ نِظامٍ للعَربيّةِ يُوثّقُ صِلَة هذهِ اللّغة بالقُرآنِ الكَريمِ مِن نَّاحِيةٍ، ويُحقّقُ تَواصُل الأَجيَالِ مِن نَّاحِية أُخرَى. وَإذَا أردْنَا وَضْع اليَدِ على أبْرزِ مَلامِحِ هَذَا المَنْهَج فإنّنَا نَجِدُ الآتِي:

1-**تَحْديدُ البِيئَةِ المَكَانيّة وَالبِيئَة الزّمَانيّة :** كانَ منْ مَنْهَجِ النُّحَاةِ المتَقَدِمِينَ عِنْدَ تَتَبّع الكَلامِ العَربيّ في بَوادِي العربِ تحديد رُقْعَةَ الفَصَاحَة، فَهُمْ " لَا يَرْوُونَ إلا عَنِ العَرَبِ الخُلّصِ الضَّارِبين في أَعْمَاقِ الصّحْرَاءِ، ولا يَقبَلُونَ الشّاهِدَ إلا إذَا وثِقُوا بِهِ، لهذا نَرَى سِيَبَويْه(180ه) يُردّد لَفْظَ الثّقَةِ ومُشْتَقّاتِهِ فِيمَا يَروِي، وَمَا يَسْمَعُ مِنَ الشّوَاهِدِ، كَأَنّمَا يُريدُ أنْ يُطَمْئِنَ أصْحَابَه إلى أنّهُ آخِذٌ على الطّرِيقَةِ التي يَتَوَارثُونَها."2 فَجَعَلُوا أَخْذَ اللُّغَةِ مُقْتَصِرًا عَلى "عَرَبِ قَبَائِل تَميمٍ وقَيْسٍ وَأَسَدٍ وهُذَيْل وَبعْضُ كِنانَة وبعْضُ طَيء"3 وبِهَذِهِ الخُطْوَة يكُونُ النُّحَاةُ الأَوَائِلُ قَدْ حَدّدُوا العَينَةَ أو المدَوّنة التي سَتَنْطَلِقُ مِنها دِراستُهم لِلوَاقِعِ اللّغَويّ، وقد رفض عَدَدً مِنَ البَاحِثِين المعاصرين هَذَا الإجْراءَ وَعَدُوهُ إجْرَاءً تَعَسُفِيّا غَيْرَ عِلميّ، إذ إنّ نتائجه لا تَنْطَبقُ عَلَى كلّ لُغَاتِ العَرَبِ حسبهم. ويبدو أنّ النّحَاة قد عمدوا إلى حَصْرِ رُقعَة المُدوَنةِ مِن أَجلِ الوُصولِ إلى أَحكامَ مُطّردَةٍ فلَوْ تَركُوا المَجَالَ مَفْتُوحًا لَمَا بَلغَ الأَمرُ بِهِمْ إلى شيءٍ، أَوْ لاضْطُرُوا إلى فَتْح المَجَالِ لدِرَاسَةٍ مُقَارِنَةٍ بَيْنَ لُغَاتِ العَرَبِ، وَلَيسَ الوَقْتُ لِلمُقارَنَة، فهَدَفَهُم الأَوّلَ في تلك المرحلة هُو الفَصَاحَةُ والسّلِيقَةُ اللّغوية وهو الشّرطُ الذي يَتوفّرُ في مُا يُعرَفُ بِرُقْعَة الاحْتِجَاجِ دُونَ سِوَاهَا...أمّا

البِيئَة الزّمَانِيَّة فَقَد حدّدُوها "بِنَحْوِ ثَلاثُمائَةِ سَنَةٍ: مِنهَا مِئَةٌ وَخَمسُونَ قَبْل الإِسْلامِ وَمِئة وَخَمْسُونَ بَعْدَهُ، ثُم نَظَرُوا بَعْد ذَلِكَ فيما رُوِيَ؛ فإنْ كانَ عَنْ أَهْلِ البَادِيَة فَهُوَ حُجَّةٌ في اللُّغةِ، وإنْ كانَ عَنْ أَهْلِ الحَضَرِ لَمْ يَكُنْ حُجَّة في اللّغَةِ."[4] وَهَذه الطَّريقَةُ في حَصْرِ العَيّنَاتِ المَدْرُوسَةِ تُعَدُ وَسِيلةً مُهمّة مِن وَسَائِلِ جَمْعِ البَيَانَاتِ، لأنّها تسْهِمُ إسهامًا أسَاسيّا في نَجَاحِ البَحثِ" فالملاحَظَةُ العِلميّة يَجِبُ أنْ تَكُونَ مرَكّزَة ومسجّلَة بدقّةٍ وحِرصٍ، وأن تَخْضعَ للصّحة والثّقةِ."[5] وهذه الإجرَاءاتُ التي اهْتَدَى النّحاةُ إلى القِيامِ بها في ذَلِكَ الزمن القديم هي ما يُعرَف في اللّسانياتِ الحَدِيثةِ بالدّراسَة الآنيّة للّغة، وتعدُّ إجراءً علميًّا متَّفَقًا عَليهِ من أجْلِ نَجَاحِ البُحوثِ الوصفيّة، وهو ما يبطل ادعاء بعض المتخصصين المحدثين في اللسانيات الحديثة بأن كل الدراسات اللغوية السابقة غير علمية ولم تكن على الأصول العلمية.

2-<u>الاعْتِمَادُ على اللّغَةِ المَنْطُوقَة (السّمَاع)</u>: اِعْتمدَ النّحاةُ عِنْدَ جَمعِ اللّغةِ على السّماعِ مِن العَربِ الفُصَحَاء يَذهبُونَ إليهم وَيحتمِلونَ أقْسَى المتاعِبِ في ذَلك لِيأخُذُوا من أفواهِهِم كَلِمَة أو يَسْمَعوا مِنْهم بَيْتًا، أو شَرْحًا، أو يتَلقّوا عَنهُم شَفَهًا طَرَائِقَ النّطقِ وصِياغَة الكَلام."[6] والباحث الوَاصِفَ للّغة يَعْتمدُ في دِراسِتهِ على المتكَلّمِ الأصليّ بهَا؛ وَهُذا مَا يُبرّرُ للنّحاةِ العَربِ الأوَائِل عُزوفَهم عن اسْتِخْدَام المنهجِ التّاريخي في دِراسَة اللُّغة، كَوْنُه لا يُتيحُ دِراسَة اللّغةِ الحَيّة المنْطوقَةِ، بل اَعْتَمدُوا المتكلم الأصْليّ لأنّهُ خيْرُ مُمثّل لِواقِع اللّغةِ المدرُوسَة، وهو شَرطٌ علميّ تَقومُ عليه الدّراسة الوَصفيّة في اللّسانِيّات البِنيويّة الحَديثة، ويختلف السّمَاعَ عند نحاة العَربيّة عَن السّمَاع عند الوَصفِيّين البِنيويّين من نَّاحيَةِ الغايَات، بِكونِه سَماعًا يَهدِفُ إلى مُعَالَجة اللّغةِ في أوْضَاع تَدَاوُليّة غَير مَعزُولَة عن السّيَاقِ، للبَحثِ في المنْطُوقِ باعتبارِه فعلا إنجازيًا مُؤثّرًا، ومن ذَلِك فإنّ من أبْرزِ أسبَابِ تَأسِيسِ عِلمِ النّحوِ هو الخَللِ الإبْلاغيّ الذي يَحْدثُ في أثناءِ المُمَارَسَة اللُّغويّةِ، يَقول ابنُ الأثيرِ(558ه) "إنّ أوّلَ من تَكلَم في النّحو أبو الأسوَد الدّؤليّ وسببُ ذلك أنّه دخلَ على ابنة له بالبَصرةِ فقالتْ له : يَا أبَت مَا أشدُّ الحَرّ،متعجبة ورفعَت أشَدُ، فظنّها مُستفهِمَةً، فَقَالَ: شهرُ ناجرٍ، فَقَالت: يا أبَت إنّما أخبرتُك ولمْ أسْألك فقال لها: ما هكَذا تَقول العربُ"[7] فأبو الأسود تفطن لوجوب تقييد اللغة بالاعتماد على المظاهِر الاتّصاليّة بينَ المتكلّمينَ وعَلاقتِها بالأدلّة الوضْعيّة التي تُعبّر عن هَذَا الاستِعمالِ وعدم الاكتفاء بالنّظر إلى ما ورد في النَصوصِ المحفوظَة فقط،وإنما يتعداه إلى البحث في كَيفية إحداث النّظام الوضْعي للّغة عمليّة التَبليغ؟ ولعلّ خيرَ دليلٍ على اعتمادِ العَربِ على المنطوق في دِراسَة اللُّغةِ، تعريف ابن جنّي(392ه) للّغة بأنّها: أصْواتٌ يُعبّر بها كُلّ قَومٍ عن أغْراضِهم."[8] والنّحاةَ وَقفُوا بأنفسِهم على الكَيفيّة التي تَجري بِهَا اللّغةُ على ألْسنةِ العرب المتكلّمينَ بها نطقًا وتداوُلا بينهم، وتَفطّنُوا لجدوَى المناهِج في تلكَ المرحلة الحسّاسَة في بناء صَرحِ الدّرس اللّغويّ العربيّ فجمع الخَليل(175ه) علمَهُ من بوادي الحِجازَ ونجْدٍ وتهامةَ كما قال للكِسائيّ حين سَأله عن ذَلك، وصَنَع الكِسائي مثلَه وخَرجَ إلى البَاديةِ، ثمّ عادَ وقد أنفذَ خمسَ عَشَرَةَ قَنينَةَ حبرًا في الكِتابةِ عن العرَبِ سِوى ما حَفظَ، وخَرَجَ يونس بن حبيب(182ه) إلى بَوادِي العربَ يتلقّى مِنهم اللّغة ثمّ عَادَ، لتُصْبحَ حلقته بعْدَ ذلكَ مُلتقَى لأهْلِ العِلمِ وطُلابِ الأدَبِ.[9] فإذا كانَ الوَصفيُّون والتّدَاوُليونَ قَد عدّوا اعتِمادهُم هَذه المنَاهِجَ ثورة عِلميّة في مَجَال دِراسَة اللّغة فإنّ النّحاةَ العربَ الأوائِلَ قَد عَرَفُوهَا ووظّفُوها في دراسَة اللّغَة قَبلَ ذلِك الوقت بِزمن طَويلٍ.

3- <u>الاسْتِقْراءُ</u>: يُعدّ النّصّ القُرآنيّ العيّنَةَ الأولى القَرِيبَة التي كانَتْ بين أيْدِي عُلمَاء العَربيّة الأوَائِل، فَقَد بَدأَ النّظرُ في لُغتِه مَع ظُهورِ مُشْكلةِ اللّحْنِ الذي انتَشَرَ عَلى ألْسِنة النّاسِ، ويَظْهَر ذلك مَعَ أبي الأسْوَدِ

الدّؤليّ(69هـ)حين قال لِكاتبه: "خُذِ المُصْحَفَ وصِبْغًا يُخَالفُ لَونَ المِدادِ، فَإذَا فَتحْتُ شَفتي فَانْقُط نُقطَةً واحِدَةً فَوقَ الحَرفِ وإذا ضَمَمْتها اجْعَل النُّقطَة إلى جَانِبِ الحَرفِ، وإذَا كَسَرتُها فَاجعَل النّقطَة في أسْفلِه فإنْ أتْبعْتُ شِيئًا من هَذهِ الحَركَاتِ غُنّة فاجْعَل نُقطَتَيْن."[10] فمن خِلالِ هَذَا النَّصّ يَظهَرُ أَنّ أبَا الأسودِ قَدْ اسْتَنبَطَ مواقِعَ تلك الحَرَكَاتِ من خِلالِ تَتَبُّعِ كلّ مُفردَاتِ القُرآنِ الكَرِيمِ وَظِيفِيًّا، وقد تَفطَّنَ للنُقطَة المشيرة للضمة بأنها تَكَرَّرتْ في أواخر كَلمَاتٍ وقَع علَيهَا فِعلُ الفَاعل، والنُّقطةَ جانِبَ الحَرفِ قد تكرَّرت في الكَلماتِ التي قَامَت بِالفِعلِ ...إلخ وهَكذا تمكَّن من وَضعِ بَعض مَبادئِ العربيَّة من خلَال اسْتِقراءِ تحرُّكاتِ المَعنَى في النّصّ القرآنِيّ، يقُول الدّكتور عبد الرّحمن الحَاج صَالِح معلقًا على اسْتقْراء أبي الأسودِ وأصْحابِه: " فقَد اسْتقْرى أبُو الأسْوَد وأصْحابُه النّصّ القُرآنيَّ آيَة آيَة لنَقطهِ، فَلا يُتصوّر أن يَستمرُوا في هَذا العمَل الذي يتَطلّبُ الانتباهَ الشّديدَ ولا يَتفطّنُوا إلى شيئ مِثل هَذا: وهُو اسْتمرَارُ وُجُودُ النّقطَة المُشيرةِ إلى الضّمّة مع هَذا اللّفظ الذي يَدلّ على الفَاعلِ، واستمرار النّقطةِ الدّالةِ على الفَتحَة لِهذا اللّفْظِ الآخَر الذي يَدلّ على المفْعُول وهكذا، ثم إن هَذَين المصْطَلحَين هُما بِنفْسَيهما دَليلانِ على قِدمِهما فقد سَمَّاهُما أبو الأسْود: الفَاعلَ والمفعُول بالنّظرِ إلى المَعنَى...وهكذا فَقَد كان النّقْطُ الدَّال على الحَركاتِ والمميّز بين الوظائِفِ النّحويَّة سبَبًا مبَاشِرًا لتَأسيسِ النّحْوِ."[11] ويرتبط فَهم الخِطاب القُرآنيّ ارتباطًا وثيقًا بمِعرفَة سُنَنِ العَربيّة وبأسَاليبِ العرَبِ في كلامِها، وَلذلك فإنَّ أيَّ محَاوَلةٍ لاسْتنبَاط نِظَامٍ يَحفَظ للخِطابِ القُرآنيّ معَانيهِ التي نَزَلَ بها تَقتَضي النّظَر في الاسْتعمَال اللّغويّ العَربيّ أوّلا، فطافَ أبُو عَمرو بن العَلاء(154هـ) بواديَ العربَ، وعُرف بِكثرَة أخْذِهِ اللّغة والعِلمَ عن طَريق السّماعِ والمشافهَةِ، فقد قال ابن الجزريَ(833هـ)عنه : "بأنَه ليْسَ في القُرّاء السّبعَة أكثرَ شُيوخًا مِنهُ"[12] ولَيسَ هُناك أدَلّ على كَثْرة اسْتقراءِ النّحَاة كَلامَ العَربِ من ردّهِ حينَما سُئل عَن مَا أسْماهُ عَربيَّة، أيَدخُلُ فيه كَلامُ العَربِ كلّهِ؟ فقَال: لا، قَال مَا تَصنَعُ فيمَا خَالفتْك فيه العَربُ وهُم حُجّة؟ قال: أحْمِل على الأكْثر وأسمّي ما خَالفني لُغات.[13] فَهو قبْلَ تصْنِيفِ اللّغةَ إلى مَتنٍ ونِظامٍ، فَصيحَة ولهْجَةٍ، قَامَ بالنّظرِ في طَرائِقِ الاسْتعْمالِ العَربيّ لَهَا، فميز الكلام العربي بمعيار الكم المطرد على ألسنة المتكلمين السليقيين. ولزم عيسى بنَ عُمَر(149هـ) الأعْرابَ وخالَطَهُم، وكانَ لا يروي عنهم إلا ما سَمِعَه هُو مِنهم، وأخذَ عنه الخليل وسِيبويه اللُّغةَ، وهو من أوَائِل النّحاةِ الذين استقرؤُوا العَربيَّة في مَوَاطنهَا، وذَكَر ابنُ سلّام في طبقاتِه بأنّه قَدْ وضَعَ كتابَهُ "الجَامِع" عَلى الأكْثَرِ وبَوَّبَه وهَذّبه وسَمّى مَا شَذّ عَن الأكثرِ مِنُه لغاتٍ.[14]. ومن ثمّ فإنّ أصولَ اللّغة العربيّة قد جاءت عن طريق المنهج الاستقرائيّ الذي هو تجريبيّ بتتبّع كلام العرب السّليقيين في ميادين الفصاحَة وتقيدِه وفقًا لما هو عليه قيدَ الاستعمال، ولم تُبنَ على المنطق والعَقل كما زعم كثير من الباحثين اللّغويين المعاصرين يقول الدّكتور عبد الرّحمن الحَاج صَالح: " إنّ النّحاةَ العَربَ القُدامَى كانُوا من أشدّ النّاسِ تقديسًا للمَسمُوع، بلْ وربّما كانُوا أكثر عُلماءِ العَالم على مَمرّ الأيّام جمْعًا واسْتقْصاءً لمُعطَياتِ اللّغَة، وَبالتّالي لَم يَكُن اسْتنبَاطُهم لأصُول اللّغة إلا مَوضُوعيّا، لأنّه استِنْبَاطٌ مِنَ الوَاقِع المشَاهَدِ لا من حُدودَ ومعاييرَ مُسْبقَة، وقَد بَنَوْا هذِه المَوْضُوعيّة على صِحّة المعطَيَاتِ زِيادةً على ضَخَامَة حَجْمِهَا."[15]

4-التَّصْنِيفُ: والتَّصنيفُ لا يَكونُ عَشوائِيًّا بل يتّبِع مَبدَأً علميًّا، وهو ضَرورَة الاشتِراكِ في صِفةٍ مَا، تَجمَعُ مَا ائتلفَ، وتُفَرِقُ ما اخْتَلَفَ[16] والمتأمّلُ في عمَلِ النّحَاة حَال اسْتقرائِهم الكَلامَ العَربِيّ في بَوادِي العَرَب يَرى النّزعَةَ التَّصْنِيفيّةَ سِمَةً غَالبةً يقُومُ عَليها منْهَجهُم، حتَّى إنّهُ لَيمْكنُنا القَولُ بأنّهمْ قَد اتّخذُوا التّصْنيفَ فَنّا، ومن مَظَاهِر عَملِهم التَّصنيفِيّ من خِلال النَّظرِ لما جَاءَ في كِتابِ سِيبويه؛ إحصَاؤُهم الشّامِل لكلّ ما جَاء في المادَّة اللُّغويّة

المجْمُوعَة في بَوادِي العَربِ، حَيث صَنفُوا الكَلامَ العَرَبيّ حَسْبَ معيَارِ الكَمّ، بِاعتِبارِ سُلّمِ الكثْرة والقلَّةِ إلى: المُطّرد والغَالِبِ، والكَثير والقَليلِ والنَادرِ والشّاذّ...إلخ كَمَا صَنفُوه وظِيفيًّا حسب مِعيَار الخَطإ والصّوابِ إلى: الجَوازِ وعَدمِ الجَوازِ ، والمَمْنوعِ الذِي ليْس مِن كَلامِ العَرَبِ...إلخ وصَنفُوا الكَلام العَربيّ نَوعيًّا باعتِبَار الجَودَة والرَّداءَة إلى: الجَيّد والحَسَن والرّديء والقَبيح والخَبيثِ...إلخ، كمَا صَنفُوا الأسْمَاء إلى مَنقُوصٍ ومَقْصُور ومَمدُود وأحَصوهَا من حيث الإفرَاد والجَمعِ والتَّثنيةِ وخَصّوا كلَّ شَيءٍ بمُؤلفاتٍ، فنَجِدُ كُتبا للمذكَّرِ والمُؤنّثِ وكتبًا للجمعِ والتّثنيةِ، وغيرِ ذَلك، ومِن برَاعَةِ التّصْنيفِ مَا قدَّمه النّحاةُ الأوائِلُ مِنْ جُهودٍ في التّصْنِيفِ في عِلْمِ الأصْوَاتِ في أثْنَاءِ تَصَدّيهِم لِلعُجْمَةِ التي دَخلَت الكَلام العَربيّ عَن طَريقِ الأعَاجِم.

5- عَدَمُ الفَصْلِ بِينَ عُلوم اللّغَة: لَمْ تَكن دِرَاسَةُ النّحاة الأوائِل للّغة دِراسَةً شَكليّةً مَعزُولَة، بَلْ تَميّزتْ بِعدَم الفَصلِ بين علوم اللّغَة وذلكَ راجِعٌ للتّلازُم الدّلاليّ الشّديدِ بَينها؛ حيْثُ عُقدَت الأبْوابُ في مُؤلّفاتِهم الأُولَى كالكتابِ والمقتَضِب مَثَلا حَسَبَ الوظائِفِ النّحْويّة للوَحَدَات اللّغَويّة مع مُراعَاة قَوانينِ الاسْتعمَال التّداوليّ للّغة؛ التّقريريّة والتّبليغيّة والتّأثيريّة...إلخ، ومِن ذَلكَ قوْل سِيبويه في الكلام العربيّ: "فَمنْهُ مُستَقيمٌ حسَنٌ ومُحالٌ ومستَقيمٌ كذبٌ ومستَقيمٌ قَبيحٌ ومَا هو مُحال كَذبٌ، فأمّا المستقيمُ الحسنُ فقولِكَ: أتيتُك أمْس وسَآتيكَ غدًا، وأمّا المُحالُ فهو أن تَنقُضَ أوّل كلامِك بآخِرِهِ فتقُول: أتيتُك غدًا وسآتيك أمس، وأمّا المسْتقيمُ الكَذِبُ فقولك: حَملتُ الجبلَ وشربتُ ماءَ البَحرِ ونَحوهُ، وأمّا المستقِيم القَبيحُ فأَنْ تضَعَ اللّفظ في غَير موضِعِه نَحو قولك: قدْ زيداً رأيْتُ، وكَيْ زيْدا يَأتيكَ وأشباهُ هَذا، وأمّا المحَال الكذِبُ فأن تقُولُ: أشربُ ماءَ البَحرِ أمسِ."[17] فالكَلام المستَقيمُ الحَسنُ كقولِك: أتيتُك أَمْس وسَآتيكَ غدًا وهو الّذي استَقَامَ نحويّا ولَم يخرُج عنِ القَواعد النّظامية الوضعيّة ولم يخرُج أيضًا عن حُدود العُرف الاستعماليّ التداولي للجمَاعة، أمّا المحَال فَكَقَوْلكَ أتَيْتكَ غدًا، وهو ما يَخرِق القَوانين التّداولية للجمَاعة، لما يُحدثه من إعاقةٍ لعمليَة التَّبليغِ وهو ما يؤكّد بأنّ سيبويه وأصحَابه لم يغْفلُوا في أثناء تقعِيدهم اللّغوي عن اللّحنِ التّداوليّ. يقُول الدّكتور محمّد كاظِم البَكّاء "بَنَى سِيبَويه الكِتابَ على الأبواب، وعَقَدَ كُلّ بابٍ على أقْوالِ العَرَبِ التي تمثّل أمْثلةَ اسْتخدامِ اللّغة العربيَّة لَدَى فُصَحائِهم، وقَد دَأَبَ في تَصنِيفِ الأبْوابِ على أنواعِ الإسنادِ وهو يَنظُر في تَحليلهَا ويُفاضِل بَينَها؛ فَحَفظَ لنَا وُجُوهَ تَأليفِ الكَلامِ باللُّغة العربيَّة يُصنّفها وَيقَوّمُها، ولَم يكن الكِتابُ مقتصِرا على بيانِ الأحكامِ النَّحويَّة لكلام العَرَبِ فقَط، بل عَنِيَ بالنَّظَر في أمثلَة كلّ بابٍ من حيث الخَطإ والصَّواب وتَفَاوتِهَا من حيثُ الجَودَة والرّداءةِ"[18] ويقول الدّكتور عبد الرحمن الحاج صالح: "فسِيبويه في كتَابه الذي عَالجَهُ هو وأصحَابه يَحْتوِي أسَاسًا الجَانبَ النّحويّ الصّرفيّ الصّوتيّ للّغةِ ولم يَكنْ هذا الميْدانُ مع ذَلك مُجردَ نحوٍ وصَرفٍ لأنّه لَم يهمِل أبدًا الجَانِبَ الدّلاليَ لأنواعِ الأبنيَة والتراكيبِ العربيّة من جهَةٍ، ومن جهَةٍ أخرى المعَاني الخَارجَة عن دَلالَة اللّفظ كدَلالةِ الحَال وغَيرهَا، ثمَّ اعتدّ كثيرًا بِظواهرِ الاستعمَال، ومنها نظريتُه في ظَواهِر التَّخاطُب"[19] ومن خِلال مَا سَبَقَ يتبدَّى لنَا أنّ النّحَاةَ الأوائِل قد اتّفقَت رُؤَاهُم المَنهجيَّة على صنَاعَة عَلمِ النَّحوِ وفْقَ تَصوُّرٍ تَداوُليّ للُّغة باعتبَارِ العَمليَّات التي تُنتجُ المعَنى في سِياقَات متنوّعةٍ، وتَقعيدُ النّحاة للعربيّة -كمَا سَموْهَا- وفق التّصور التّدَاولي للّغة؛ هو أمر حتميّ وضرورة ملحّة تفرضها لغَة القُرآن الكريم وخَصائصٌ هي فيها، كَما أنّه لا جَدوَى من التَوقُّف عند الاسْتقْراءِ ووصفِ الظَّواهِر اللُّغويَّة وتَصنيفِهَا، في تلك الفَترة التي تَميّزت بتسَارُع تَوسُع رُقعة الدَّولة الإسلاميَّة واخْتلاطِ العرَبِ بالأمَمِ الأخرَى، وإنّما الإسراعُ في مَعْيَرَةِ الاستِعمَالِ اللُّغويّ للعَربيّة على شكْلِ قَواعِدَ نحويَّة وصرفيَّة، والشّروعُ في التَّقعيدِ النَّحويّ

للعَربيّة قَبلَ ذوبانِها في لُغاتِ العَجمِ. فَمَعْيَرَةُ الاستعْمَالِ اللُّغويّ للعربيَّةِ يضمَنُ عَدَمَ السَّماحِ بدخُولِ أبْنيةٍ صَرفيّة أو تَراكيبَ نَحويَّةٍ أو صوتيّة جَديدةٍ، وهَذَا هو السّبيلُ إلى حفظِ تمَاسكِهَا باعتبارِها مرجِعًا لفهْم القُرآن الكريم وسبيلا لتَواصلِ الأجيالِ معَه عَبر التَّاريخِ إذْ إنّهُ لا بُدَّ من وضْعِ قانونٍ يلتزمُه من يُريد فَهْمَ معاني القرآن الكريم وضَبطَ قراءتِهِ والعَملَ بما جاءَ فيه لأنَّ الاكتِفَاءَ بوصْفِ الواقعِ اللّغويّ لا يُمَكّنُ الأجيالَ اللاّحقَةَ من فَهمِ الخِطابِ القُرآنيّ أو التَعبيرُ بلغَةِ العَربِ، أو قِراءَة آثَارِهِم الدّينيَّة ودَواوينُهم الأدبيَّة، إلا من كان مِنهم متخصّصًا في لُغَة ذلك الزَّمنِ وقيل "إنّ يُونُس بن حبيب سَأَلَ عبد الله بن أبي إسحاق الحضرميّ: أفي العَربِ من يَقولُ الصّويقَ؟ قال : نعَم، عمرو بنُ تميمٍ تقولُها، ومَا تريد إلى ذَلك، علَيكَ بِبابٍ من النّحوِ يطّردُ وينْقَاسُ"[20] فكأنه كان يَنهَى الرّجلَ عن الانْشغالِ بغير مشْرُوع معيار اللّغة الرّسمية المشتركةِ لغَةُ الدّوْلةِ الإسْلاميَّة بكلّ أجنَاسِهَا لُغة الدَّولة المُقبلَة على المشْروعِ الحَضَاريّ، فليسَ الوَقت وقْتَ مقارنةٍ أو إفراد العلوم اللّغويّة بالدّراسَة الشّكلية المعزولَة، ويُعبّر عن هَذا الهَدفِ ابن جنّي في تَعريفِ النّحوَ بقولِه: "هُوَ انتحَاءٌ سَمتِ كلامِ العَربِ في تصَرُّفِهِ من إعرابٍ وغيرِه كالتّثنيةِ والجَمعِ، والتّحقِير والتّكسيرِ، والإضَافَة والنّسب والتّركيبِ، وغير ذَلك لِيَلتحِقَ من لَيسَ من أهْل اللُّغة العَربيّة بأهلهَا في الفَصاحَة فينطِق بِها وإنْ لمْ يكُن مِنهم، وإنْ شذَّ بَعضهُم عنها؛ رُدّ به إلَيها." [21] ولا يُقَال عن المتكلّم بِلغَة مِن اللّغاتِ بأنَّه مُتقنٌ لهَا إلا إذَا خضَع لمعيَارها المتواضَعِ عليْه مَقيسًا أو مَسمُوعا فهو مُصيبٌ كمَا يُصيبُ غَيرُه، وإذَا لَم يَخضَع لجَهلِهِ بِها أو لِسَبَبٍ آخَر: فَهوَ مُخطِئ في اِستِعمَالِهِ إيَّاهَا.[22] ومن الإجراءَات المِعياريَّة الأسَاسيَّة في التَّأسِيسِ لنِظام اللُّغَة العَربيَّة:

أ-القياس: كانَت نَشأَةُ القِياسِ النَّحويّ مُصاحبَة لنَشأةِ الدَّرسِ اللُّغويّ العَربيّ، حَيثُ بَدَأَ مع أبي الأسوَدِ الدُّؤليّ، ثُم تطوّر على يد ابن أبي إسحاق الحضرمي فكان أوّل من مَدّ القِياسَ وكانَ أشدَّ تَجريدًا له " والقِياسُ كمصدر للفعْل قاسَ يَقيسُ يدلّ على إجرَاء المتكلّم في كلامِه المفْرَدَة أو التّركيبَ على مِثالٍ من مثلِ كلامِ العَربِ ولو لَم يسْمَع ذلك مِنهم أو من فَصيحٍ، وربَّما لَم ينطِق بِذلكَ أحَد في أيّ وَقْتٍ، لأنّه يُجريهِ على قِيَاسِ كلامهم."[23] ومَا تتميَّز بِه بنْية النّظام المعْياريّ العربيّ أنّه أوْجَد آليَّة القِياس، هَذه الآليَّة التي تسمَحُ لمستَعْمِل اللّغة أن يُطوّر اللّغة بمفْرداتٍ وتَراكيبَ ودلالاتٍ بما يلائِم تجارِبه الجَديدةَ، من غير أن يُخَالفَ النّظامَ المعياريَّ الأساسيَّ، وهذا مَا يمنح النّظام خاصيّة المرونَة والحرَكةَ، لا القسَاوة والصّلابة والثّبات المطلقِ فالقياسُ يَضمنُ لمسْتعملي اللّغة التّوسعَ في الاستعمَال لما تقتضِيه الحَياةُ مِن تطوّر دَائم، إذْ أنّ اللّغة تُواكِب النّشَاطَ الإنسانيّ الذي قَد يتَطلّب مسمياتٍ لموضوعَات جديدةٍ لم تَكُن مَوجُودَة إبّان الانتهاءِ من وَضعِ النُّحاة لنظام القَوَاعِدِ[24].

فكان من مَنْهَج النُّحاةِ البَصريين أنْ أسّسُوا للقَواعِد النَّحويَّة على أسَاسِ الكَثيرِ المطّردِ من الكَلَام العَربيّ المَرْوِي عن أهْل اللُّغة في البَوادِي المحدّدة بِرقعة الاحْتِجَاج، فسيبويه يُردّد في كِتابِه حينما يَأتي إلى القِيَاسَ قوله: " لأنّ هَذا هُو الأكثَرُ في كلامِهم وهُو القِياسُ، وقوله: هُو القِياسُ وقَول عَامّة العَرَبِ أو أكثرُ العَرَبِ."[25] وعَبّر عن مَنْهُج النّحَاة المتَقدّمين في القِياسِ أبو عمرو بن العلاء بقوله: أحْمِلُ عَلى الأكثَر وأسَمي مَا خَالفَني لُغَات."[26] وهُو دَليلٌ واضِح عَلى أنّ النّحَاةِ اسْتخْرجوا قَوَاعِد العَربيّة مِمَّا كَثرَ اسْتِعمَالُه في كَلام العَربِ، أمّا مَا جَاء مخالفًا للقَوانِينِ المُسْتنبطَة من الكَثير المطرد؛ فهُو من القَليل أو النّادِر أو الشّاذّ الذي يُحفَظ ولا يُقَاس عليهِ يقول الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح: " فَهَذَا الذي يُسْمَع ويُحفَظ ولا يُقاسُ عليه لأنَّ لهُ نظَائر قَلائِلَ من بابِه فالنُّحاةُ العَرب شديدُو العِنايَة بِه، لأنّه يكوّنُ جزءًا كبيرًا من اللّغَةِ، وهذا دَليلٌ قَاطعٌ على امتنَاعِهم من المسّ

بالمسْمُوع بإخضَاعِه لقِياسَاتِهم كمَا يَزعُم بَعضُ مُعَاصِرينَا"[27] وهَدفُ النّحَاةِ من كلّ هَذه الأحْكَامِ والأوْصَافِ؛ لَيسَ هو تَفضِيلُ طرِيقَة في الكَلامِ على أُخرى بِإخْضَاعِهَا لِحدودِهِم وَأقْيسَتِهِمْ التي وضَعُوهَا أو منعِها؛ بَل هُو إثباتُ الطَّرِيقَة التي اجتمَع العَربُ على اسْتعْمَالِهم إيَّاهَا.[28]

أما نُحَاةُ الكُوفة، فَقَد تَوسّعُوا في القِياسِ وكانوا يَعتَدّون بكل ما سُمِع من العَرَبِ، بِغيرِ نَظرٍ إلى اطّرادِه أو قلّته، حتّى قاسُوا على القَليلِ النّادِرِ والشّاهِدِ الوَاحِد.[29] وقد شَبّه كثيرٌ من البَاحِثينَ المعَاصِرينَ مَنهجَ الكُوفيّينَ في دِراسَة اللّغَة بالمنهجِ الوَصْفيّ البِنيويّ في اللّسَانيّاتِ الحَديثَةِ.

ويرَى بَعضُ البَاحِثِينَ بأنَّ منْهَجَ البَصرِيينَ في القِياسِ يُفضي إلى معَاييرَ لُغويّة مُشتركَة تَجمَعُ النّاسَ على عَربيَّة رَسميّة مُشتركَة، وأمّا منهج الكُوفِيينَ فإنّه يُفضِي إلى تَوسّعٍ لَهجيّ وكَثرةٍ في القَواعِد يَصْعُبُ على النّاسِ الاتّفاقُ عَليها، لِذلكَ كان لابُد للنّحاة البَصْريينَ من التّضحِيَة بِكثيرٍ من اللّهجَات العَربيَّة في سَبيلِ بنَاء نِظَام لُغَةٍ يَجتمِعُ العَرب والعَجَمُ عَليها مَا بقِي القُرآن الكَريمُ، لأنّهُم في المقَابِل قَد أوجَدُوا القِيَاسَ آليّة تَسْمُح لمسْتَعمِلي اللّغَةِ بِمُواكبَة التّطوُر المرتبِط بحَيَاةِ الإنسانِ دُونَ مُخَالَفَة النّظامِ المِعيَاريّ الرّسْميّ، وقدْ أفْضَتْ عَبْقريَّة النُّحاة الأوَائلِ في تَحلِيلِ بُنَى اللّغة العربيّة إلى ابتِداعِ مفهُوم الوَزْنِ الصّرفيّ، يقول الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح: " فأدَاهُم ذلِك إلى ابتدَاع مَنهجٍ في التّحلِيلِ انْفردُوا بِه، وإلى تصوّر بديعٍ للعَربيّة ونظريّة لغويّة اخْتُصوا بها، فَمَفهُوم الوَزْنِ هو وَليدُ البُحوثِ التي أجْروهَا على كلام العرب لاكتشَاف التّكافئ، ووفّقُوا في ذَلك من النّاحية العِلميّة إلى حَدّ بعيدٍ جِدّا، إذ لم يَلجَؤوا إلى التّقطِيع والاسْتِبدَال اللّذين امتَاز بِهما البِنيويونَ في زمَاننا في محاولتهم لاكْتِشَاف الوَحدَات اللّغويَّة.[30] والميزَان الصّرفيُّ هو "نَموذَجٌ قَائمٌ في أسَاسِه على التّمييزِ بينَ الحُروفِ والحَرَكَاتِ من جهَةٍ، وعلى الجذْرِ (الحروف الأصليّة) وحُروفُ الزّياداتِ الصّرفية من جهة أخرى، وهو يمثل عمَلاً عربيّا خَالصًا لا يشترك معهم فيه أحدٌ، بلْ مثّل عمَلهم هَذا تَحَدّيًا للعقلية الغربيّة التي لمْ تألفْ في الصّرف هَذا النّمطَ من التّجريدِ."[31]

ب- التّعْليلُ: البَحْثُ عَنِ الهَدَفِ أو الغَرَضِ مَبْدَأٌ مِعْيَاريّ يُجِيبُ عَنِ السُّؤَالِ لِمَاذَا وَهُوَ الذِي قَادَ إلى نَظَرِيّة العَامِلِ التي تُنْشِدُ عِلَلاً للحَرَكَاتِ الإعرَابيّةِ غَيرَ تَواتِر كَلامِ العَرَبِ بِذَلِكَ.[32] وَالتّعليلُ في الدَرْسِ اللّغَوِيّ العَرَبِيّ إجْرَاءٌ مَنْهَجيّ عَقليّ مُسْتَنبطٌ مِن لُغَةِ العَرَبِ، لِتثْبِيتِ قَواعِدهَا وإنْجَاحِ عَمليّة التّعليمِ بإبرَازِ حِكْمَةِ نَظْمِ اللّغةِ على النّحوِ التي هي عَليْه، يَقُول الخَليل بن أحمد: "إنّ العَرَبَ نَطَقتْ على سَجيّتِها وطِباعِها،وعَرفَت مَواقعَ كَلامِها، وقَامَ في عُقُولِها عِللُه وإنْ لَمْ يُنقل ذَلكَ عَنها، واعتلَلْت أنَا بِمَا عِندِي أنَه عِلّة لما عَلّلته مِنه، فإنْ أكُن أصَبْت العلّة فهو الذي التَمَسْتُ، فإن سَنَحَ لغَيرِي علّة لما علّلتُه من النّحو، هُو أليَقُ مِما ذَكَرْته، فَلْيأتِ بِهَا."[33] وإلى هَذا أشَار ابن جِني حِين قَال: " فَكُلُ من فُرِقَ لَهُ عَن عِلّة صَحِيحَةِ، وطَرِيقٍ نَهجَةِ كانَ خَلِيلَ نَفْسِه وأبَا عَمرُو فِكْرِه"[34] فالتّعليلُ مُسْتَنبطٌ مِن لُغَة العَرَبِ لِتفسِير العَلاقَةِ القَائمةِ بَينَ اللّغةِ بِمتْنِها والنّحْو بأحْكَامِه وقَوَاعِدِه وَلعَلّ هَذَا يُشبُه شَيئًا مِمّا انْتهتْ إليهِ اللّسانيّات التّوليدية، ومن منهج النحاة في التعليل أنهم علّلوا لكل القواعد النحوية، إذ إنّ كل حكم نحوي يعلّل، وعلّلوا للظواهر الصّوتية والصّرفية فهم استخدموا التَّعلِيلَ كوسِيلةٍ علميّةٍ بيّنوا بها كَيفَ نتجتْ القوانِينُ اللّغويَّة وكيفَ خرَجَتْ إلى الوُجودِ، "فالعِلمُ ينْبَغي أنْ يَكونَ قادِرا على تَقديمِ البُرهانِ أو البراهِينِ التي تجدّد مِصدَاقيتَه دَائمًا لأن البرهنَة تُبعد الشّكّ عن نتَائِج العلمِ"[35] وارتَبطَت نَشْأةُ التَّعليل في الدَّرس اللّغويّ العربيّ بنشْأةِ النّحوِ، فقد جاء في بعض كتُب التَّراجِمِ إنَّ عبد الله بن أبي إسحَاق الحضرميّ هو أوَّل مَن بَعَجَ

النّحوَ ومدّ القِياسَ، وشَرَحَ العِللَ، فحين كان النّحاةُ يستنبطُون قواعِدَ العَربيَّة عند استقراء لُغة العَرب ولغة القُرآن الكَريم، كانُوا يَذكُرون العلَّة التي أوْجبَت وُجودَ تِلك القَوَاعِد النّحويّة وتجريدُهم العِلل مُتعلّقٌ بالتأصيلِ النَّحويّ حتى يتيسَّر لهم تَعديَة الحُكمِ من الأصْلِ إلى الفَرْعِ

الخاتمة :

وبَعْدُ، فإنّ الحَاصِل ممّا تقدّم، ما يلي:

- نجح نحاة العربية الأوائل في تصنيف قواعد لغتهم وتقييدها وفقا لما هي عليه قيد الاستعمال وهذا يعود لمنهجهم الاستقرائي التجريبي الذي اعتمدوه في تتبعهم لكلام العرب السليقيين في البوادي العربية، وقد بَلَغَت دّراساتهم اللغوية مستوى علميّا رفيعا يدلّ على نضج فكري مبكّر، وعمل منهجي منظم.

- جاءت أصول اللغة العربية استقرائية معيارية غير قابلة للاندثار لارتباطها بالشواهد القرآنية التي هي المثل الأعلى للفصاحة والبيان، فبقاء اللغة من بقاء شواهدها المعيارية.

- عمد النّحَاة الأوَائل إلى مَعيَرَة الاستعمَال اللّغويّ للعربيّة من أجل عَدَم السّماح بدُخُول أوجُه جَديدَة من التّراكيب النّحويّة والبُنى الصّرفيَّة والصَّوتية لنظام اللّغة التي نزل بها القُرآن الكريم، فالمنهجُ المعياريُّ أفضى إلى إمكانية مراقَبة اللغة وحراستها في كل مكان وزَمَان.

.- استعان الدّرس اللّغويّ العربيّ ببعضٍ مِن الأسُسِ المنهجية كالتي نادت بها اللسانيات الحديثة، وهي عند العرب السّماع والاستقراء والتّصنيف، والسّمَاعَ العَربيّ يختلفُ عَن السّمَاع عند الوَصفِيِّين البِنيوِيّين من نَّاحيَةِ الغايَات، بِكونِه سَماعًا يَهدِفُ إلى مُعَالَجة اللّغةِ في أوْضَاع تَدَاوُليّة غَير مَعزُولَة عن السّيَاقِ ثم نحا به النحاة إلى المعْياريّة.

- انصرف النّحَاة الأوائلِ عن استخدامِ المنهجِ التّاريخيّ لأنّه لا يتيح دراسَة اللّغة الحيّة المنْطوقَة، بل يتيح استرداد الماضِي اللّغويّ، كمَا أن تِلكَ الفترة لم تتطلّب دراسَة تاريخيّة ولا مقارِنة، بلْ اقتضَت الانطلاق وفق بعض أسس المنهج الوصْفيّ، لتحقيق أهداف معياريّة، وهو سبق منهجيّ يحسب للنّحاة الأوائلِ.

- كان النّحاةُ الأوائل على علم بجَدوى المناهجِ اللّغوية وإن لم يسمّوا المناهج بأسمائها، ولم يحدّدُوا أسسا إجرائيّة لها، ولكن يظهر ذلكَ من خلال استقراء أبحاثهم ودراساتهم.

- كان استنباط النّحاة الأوائل لأصُول اللّغة استنبَاطًا موضوعيّا من الواقَع المشَاهَد، لا من حدودَ ومعاييرَ مسبقة فلا أثر للتَّحليل الفلسفيّ في أعمَالهم ولا منطقَ أرسطُو،كما يدّعي كثير من البَاحثينَ الغربيين والعَرب بل هي كما قال الكسائيّ:" النّحو مَعقولٌ من منقولٍ."

- تمكن النّحاة المتقدّمون- على اختلاف أصولهم وأعراقهم – من استنباط نظام اللّغة العربيّة منها، وأسّسوا لنظام لغة خالدة تَتَعايش وسُنن التَطور اللّغوي دُون انقطَاع أواصر التَّواصل بين الأجيَال وذَلك بفضْل القيَاس.

- استنبط النحاةُ العلَل النّحوية لتَقرير الأحكام ولم يفرضُوهَا بالقُوَة على المتَكلمينَ.

- درَاسَةُ اللّغة درَاسة شَكليّة مَعزولة عن السّياقَات المتنوّعَة جَاءَت متأخرة إلى مَا بَعدَ فَرَاغ النّحاة من استنبَاط نظام العَربية وتقريره.

هوامش وإحالات المقال

[1] الزبيدي، لحن العامة، تح: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي القاهرة، 1420-2000، ط02، ص:59.

[2] علي النجدي ناصف، تاريخ النحو،دار المعارف، القاهرة، مصر، ص:32.

[3] المرجع نفسه،ص: 33.

[4] محمود أحمد نحلة، أصول النحو العربيّ، دار العلوم العربيّة، بيروت لبنان، 1407-1987، ط01، ص:60.

[5] ينظر: أحمد بدر، أصول البحث العلميّ ومناهجه، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، مصر، ص342.

[6] ينظر: التواتي بن التواتي، محاضرات في أصول النحو، دار الوعي للنشر، الجزائر، 2008، ص:69.

[7] ابن الأثير، المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر،تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية بيروت لبنان، 1995،ص:31.

[8] ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجّار، دار الهدى للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، ج:01، ص33.

[9] محمد عيد، رواية اللغة، دار عالم الكتب، القاهرة، مصر، 1988، ص:19.

[10] أبوعمرو الدّاني، المحكم في نقط المصاحف، تح: عزة حسن، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط: 04، ص: 06.

[11] عبد الرحمن الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، دار موفم للنشر، الجزائر،ص: 18.

[12] ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القرّاء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2006، ط:01، ج:01ص:264.

[13] السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تح: محمد جاد المولى بك وآخرون، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ج:01، ص:184.

[14] ابن خلكان، وفيات الأعيان، تح: إحسان عبّاس،دار صادر، بيروت، لبنان، 1978،ج04،ص: 486..

[15] عبد الرحمن الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، ص:249.

[16] حسن خميس الملخ، التفكير العلمي في النّحو العربي، مكتبة لسان العرب، عمان الأردن، ط:01، 2002،ص23.

[17] سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام هارون، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، ج01، ص: 25-26.

[18] محمد كاظم البكاء، منهج كتاب سيبويه في التقويم النحوي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، العراق، 1989، ط01،ص:19.

[19] عبد الرحمن الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان ، ص:08-09.

[20] الزبيدي، طبقات النحويين واللّغويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر،ط02، ص:32 .

[21] ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجّار، ج:01، ص34.

[22] عبد الرحمن الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان ، ص157.

[23] المرجع السّابق: ص157.

[24] ينظر: لؤي علي خليل، وعلي أبو زيد، معيارية العربية- دراسة في بنية النظام اللغوي- مجلة التخطيط والسياسة اللغوية، العدد03، ص:147

[25] علي النجدي ناصف، تاريخ النحو، ص:32.

[26] السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج01، ص:184.

[27] عبد الرحمن الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان ، ص249.

[28] المرجع السّابق ص: 249.

[29] علي النجدي ناصف، تاريخ النحو، ص:32-33.

[30] عبد الرحمن الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان ، ص:172.

[31] محمد عبد العزيز عبد الدايم، النظرية اللغوية في التراث العربي، دار السلام للنشر، القاهرة، مصر، ط:2002،01،ص171.

[32] ينظر: لؤي علي خليل، وعلي أبو زيد، معيارية العربية- دراسة في بنية النظام اللغوي، ص:146.

[33] أبو القاسم الزّجّاجيّ، الإيضاح في علل النّحو،تح: مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط:1996،06،ص:66.

[34] ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجّار، ص:190

[35] حسن خميس الملخ، التفكير العلمي في النّحو العربي،ص28.

المصادر والمراجع

1- ابن الأثير، المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر،تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية بيروت لبنان، 1995.
2- التواتي بن التواتي، محاضرات في أصول النحو، دار الوعي للنشر، الجزائر، 2008.
3- ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجّار، دار الهدى للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، ج:01.
4- ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القرّاء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2006، ط:01، ج:01.
5- ابن خلكان، وفيات الأعيان، تح: إحسان عبّاس،دار صادر، بيروت، لبنان، 1978،ج04.
6- أحمد بدر، أصول البحث العلميّ ومناهجه، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، مصر.
7- أبو القاسم الزّجّاجيّ، الإيضاح في علل النّحو،تح: مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط:1996،06.
8- أبوعمرو الدّاني، المحكم في نقط المصاحف، تح: عزة حسن، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط: 04.
9- الزبيدي، طبقات النحويين واللّغويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر،ط02.
10- سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام هارون، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، ج01.
11- السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تح: محمد جاد المولى بك وآخرون، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ج:01.
12- حسن خميس الملخ، التفكير العلمي في النّحو العربي، مكتبة لسان العرب، عمان الأردن، ط:01، 2002.
13- عبد الرحمن الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، دار موفم للنشر، الجزائر.
14- علي النجدي ناصف، تاريخ النحو،دار المعارف، القاهرة، مصر.
15- لؤي علي خليل، وعلي أبو زيد، معيارية العربية- دراسة في بنية النظام اللغوي- مجلة التخطيط والسياسة اللغوية، العدد03.
16- محمد عبد العزيز عبد الدايم، النظرية اللغوية في التراث العربي، دار السلام للنشر، القاهرة، مصر، ط: ،2002.
17- محمد عيد، رواية اللغة، دار عالم الكتب، القاهرة، مصر، 1988.